

المحاضرة الثانية: الإحالة ومعرفة النص.

أهداف المحاضرة

الهدف الخاص:

أن يستنتج الطالب دور الإحالة في بناء النص.

الأهداف الإجرائية:

أن يستخرج أنواع الإحالة من النص.

أن يربط الإحالة بمعايير النصية.

تمهيد:

تؤدي الإحالة (referral) دورا هاما في معرفة النص وتحقيق تكامله؛ إذ تربط السابق باللاحق ضمن نقطة لغوية من تركيب اللغة، وهي ضمائر وإشارات يستعين بها النص ليختصر البناء من جهة، وليشير إلى مقاطع لغوية قريبة أو بعيدة من جهة أخرى، وهذا من شأنه يربط الأجزاء النصية بعضها ببعض. كما تساعد الإحالة في ربط النص بواقعه وفضائه الخارجي؛ إذ نجدها تدخل في علاقة منهجية مع السياق، وفي هذه النقطة ينبغي أن يكون المحلل ذو دراية متخصصة بسياق النص، كي يبحث أكثر في تفاصيله: اللغوية والثقافية والعاطفية والموقفية، مما يزيد القراءة وفرة تحليليه وتأويليه تجعل الناظر في النص مبدعا أكثر كلما تعمق في فهمه وربط الدّاخل بالخارج.

1. الإحالة في تحليل النص:

تفسّر الإحالة بالنظر إلى النص وسياقه اللغوي وغير اللغوي، وهذه الصّور الكلية للتّماسك النصّي بواسطة الإحالة يقدمها لنا في قالب دلالي، بعدّها عنصرا لغويا وعلاقة دلالية ذات وظيفة سياقية ومقامية في أن.

فكما يقول الباحث: "فايز الكرمي": "تقوم الإحالة بدور بارز في إنشاء التماسك الدلالي للنص، فمنها ما هو إحالة إلى داخل النص أو اللغة، ومنها ما هو إحالة على خارج النص، وهذا النوع مرتبط بأنواع محدودة من النصوص، وتحتاج إلى جهد أكبر للكشف عنها، وإيضاح كيفيتها، وتأويل العنصر غير اللغوي الذي يحكمها ويقع خارج النص، وفي هذه الحالة يستعان بالسياق والمقام الخارجي في تفسير الإحالة النصية"¹.

مثال نموذجي : سورة الكوثر

"إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)".

يقدم لنا عنصر الإحالة في الآية الأولى من "سورة الكوثر"، مظهرا من مظاهر التماسك النصي والتعاليق الدلالي، ممثلا في البنية الإحالية، التي أشارت من بدايتها بواسطة الضمير إلى عناصر لغوية بعدية وسياقية،

¹ فايز الكرمي، تحليل البنية النصية من منظور علم لغة النص دراسة في العلاقة بين المفهوم والدلالة في الدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث والدراسات، أيلول، ع25، 2011، ص224.

ممثلة في الشّخصيات وجزء كل واحد منهما، فأداة التوكيد والنصب (إنّ) + الضمير المتصل - (ا) نحن، تجعلنا نبحت عن صاحب الضمير، وبعودة قبلية نجد أنّ هذه البنية الإحالية تُفضي إلى البنية النّصية الشّاملة للقرآن الكريم، وإلى مرسله " الله سبحانه و تعالى". وهو ما يمكن أن نعتبره إحالة نص إلى النص، أي بنية لغوية ودلالية متّحدة تحيل بواسطة الضمير إلى النّص الكلي. بذا، قد أشار العنصر الإحالي وأعاد إلى مرسل الرّسالة اللّغوية الدلالية، وذات "الله سبحانه وتعالى، لغته وقوته وسياق نصه بشكل عام.

كما أنّ إدراك هذه البنية الإحالية يحتاج إلى فهم البنية النّصية الكلّيّة، مما يعني أنّ هذه التركيبة اللّغوية المتماسكة لغويا والمتعالقة دلاليا، جزء لا يخرج عن الوحدة الدلالية الكبرى ونظام النص بشكل عام؛ فهذه الصيغة اللغوية التي تضمنها عنصر الإحالة، يماثل الكثير من التّماذج التي انتهج فيها النّص القرآني أسلوب الإحالة إلى العقد الدلالي النّاطم؛ أي الله سبحانه وتعالى، بوصفه المتصرّف الحق والمالك الوحيد لكلّ الأمور، وبالتالي يعدّ ضمير الإحالة بواسطة هذه البنية اللغوية الصغرى بمثابة إشارة ضمنية إلى بنية نصية أكبر وأشمل، فلم يربط بداية السّورة بنهايتها فقط، بل ربط نصا بنص وسياقا بمقام.

إنّه موقف تكوثر فيه صلة الوصل بين المعطي "الله تعالى" والمعطى له "الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم"، وبُترت فيه تواليا بينه وبين الشّانئ، ضمن مقام الآخرة وما ينطوي داخله من مظاهر الحساب والجزاء والعدالة الإلهية. "معنى الأبتّر في الآية: الذي لا خير فيه. وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبي - صلى الله عليه وسلم، فهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبتّر دون المعنى الذي عناه هو، حيث لمز النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه أبتّر، أي لا عقب له؛ لأنّ العاصي بن وائل له عقب فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابن ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي الجليل، ولعبد الله عقب كثير. قال ابن حزم في الجمهرة: عقبه بمكة وبالرّهط. فقولته تعالى: هو الأبتّر اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبتّر لشانئ النبي - صلى الله عليه وسلم - ونفيها عن النبي - صلى الله عليه وسلم، وهو الأبتّر بمعنى الذي لا خير فيه"².

لأنّ الكوثر يشير إلى التّمهر الذي يشرب منه المؤمنون على يد الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا يظمؤون بعدها أبدا، "والكوثر: اسم في اللغة للخير الكثير صيغ على زنة فوعل، وهي من صيغ [ص 573: الأسماء الجامدة غالبا نحو الكوكب، والجورب، والحوشب والدوسر، ولا تدل في الجوامد على غير مسماها، ولما وقع هنا فيها مادة الكثر كانت صيغته مفيدة شدة ما اشتقت منه بناء على أن زيادة المبني تؤذن

² محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 2008، م 30، ص 526.

بزيادة المعنى ، ولذلك فسره الزمخشري بالمفرط في الكثرة ، وهو أحسن ما فسر به وأضبطله" (بن عاشور، صفحة 572، 573) وهو عطاء في الآخرة، ولما نذكر الوجود الآخروي، لا بد أن يتعالق دلاليا مع الوجود الدنيوي، فكلاهما قد نال جزاءه بنا على ما قدّمه في حياته. ومن خلال ملمح السياق الخارجي نفهم أنّ الشانئ هو الذي استهزأ بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأعابه أنّه مقطوع من النسل، وهو مظهر تتفاخر به العرب وتعتز بكثرة بحسبها ونسبها وإنجاب الذكر فيها. اشتملت على بشارة النبيء - صلى الله عليه وسلم - بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وأمره بأن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة . وأن ذلك هو الكمال الحق لا ما يتناول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة وهم مغضوب عليهم من الله تعالى؛ لأنهم أبغضوا رسوله ، وغضب الله بتر لهم إذا كانوا بمحل السخط من الله . وأنّ انقطاع الولد الذكر فليس بتر؛ لأنّ ذلك لا أثر له في كمال الإنسان"³.

فكما نلاحظ، هذا العنصر السياقي قد أفضى إلى توالد دلالي وتلاحق تركيبى أدخل إلى حيّزه كل ما يتعلّق بوحدة النّص الكبرى، إذ ربط السابق باللاحق، والداخل بالخارج من أجل بيان دلالة العدالة الإلهية، وهذا الناتج اللغوي والدلالي قد أسهمت الإحالة في إبرازه.

يتبيّن لنا ممّا سبق، أنّ العناصر الإحالية تتموضع ضمن تركيب لغوي يربطه بالعالم الخارجي، فيتم الانطلاق منها لتحديد دلالة ومقصد النّص، إذ تساعد بشكل كبير في فهم استراتيجية البناء النصي وتحقق معايير النصية، وكما تسهم في تحديد بنية النّص ودلالته وأبعاده المقصدية، يؤثّر فيها النّص من جهة موازية ليكشف عن ملامحها اللغوية وغير اللغوية، هذا يستلزم أنّ قيمة الإحالة تبرز في بناء النص من خلال الرّبط بين ما هو سابق وما هو لاحق داخل النّص من جهة، وكذا الرّبط بين النّص والعالم الخارجي من جهة أخرى، وكلّه يوضّح كيف تتناسق الجمل والتراكيب والأجزاء اللّغوية ضمن أفق لغوي واحد هو النّص.

على هذا، لا ينفك علماء اللغة عن ربط النّص بالعالم الخارجي، وتداولية النّص على وجه الدّقة، إذ يقدّم لنا "دي بوجراند" مجموعة من المعايير التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار أثناء الإجراء، وما قبله من تزوّد منهجي يعين على فهم وصفي لحدود النّص، ومن النّقاط المنهجية التي يُضيفها: "ينبغي للنّص أن يتّصل بموقف يكون فيه situation of occurrence تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات strategies والتوقعات expectations والمعارف knowledge وهذه البيئة الشاسعة تسم سياق الموقف context أما تركيب النّص

³ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ص 572.

فهو سياق البنية co-text"⁴. ووفق هذا نكون أمام باب آخر يفتح أمام النص وهو سياق الموقف، لذا نجد في المعايير النصية التي قدمها "دي بوجراند" لا يغفل جانب القصدية والماقية في تحقيق النص وتفعيل جانبه الإجرائي، وهي على التوالي:⁵

1. السبك cohesion: ويراد به الرّبط الرّصفي الذي يلتحم فيه السّابق من العناصر اللغوية باللاحق في تشكيل الصيغة النّحوية التركيبية وهو يرادف لنا مصطلح الاتّساق، كالترّكّار والإحالة والحذف.
2. الالتحام coherence: هو التّرابط المفهومي المتّصل بالعالم الخارجي، وهو يرادف لنا مصطلح الانسجام في بعض الترجمات.
3. القصد intentionality: وفيه يغدو النص وسيلة للوصول إلى غاية معيّنة، فهو يتمتّع بالسّبك والالتحام، ويتوسّط كما يقول بين المرتكزات اللغوية في جملتها والمطالب السّائدة للموقف.
4. القبول acceptability: في هذا المعيار يُنظر إلى موقف المتلقي من النص ودرجة قبوله، فكأنّه يتعلّق برّد فعله تجاه مادته اللغوية بما فيها من شرطي السبك والالتحام.
5. رعاية الموقف situationality: يتعلّق بعناصر الموقف وحالات الاتّصال بين النص ومتلقيه، وهو يشر أكثر شيء إلى طرفي الاتصال والظروف المحيطة بهما.
6. التناسخ intertextuality: هو احتواء النص على نصوص أخرى مرتبطة به، بحيث إذا قمنا بقراءته نستذكر وجودها في نص آخر.
7. الإعلامية informativity: يراد بها الحكم على الوقائع النصية في مقابلة البدائل الممكنة.

يبدو جلياً أنّ هذه المعايير النصية التي اقترحها دي بوجراند، تنظر إل النص من ثلاث زوايا، ما يتعلّق بالبنية الداخلية للنص، ثم ربطها بالعالم الخارجي، حتى يتمّ ثالثاً تحديد المواقف التي تنشأ عنها العلاقة بين النص ومتلقيه من حيث تحقيقه للمقاصد من جهة، وسلوك الطرف المقابل اتّجاه ما يقرؤه. وأغلب الباحثين نجدهم يدورون في فلك هذه النظرة ثلاثية الأبعاد.

لقد جعل الوظيفيون البنية خادمة للوظيفة وتابعة لها والوظيفة بالنسبة لهم هي التي تستدعي البنية إذ إنّها الأسبق عنها، "إنّ ما يميّز الوظيفيين ممن سبقهم من البنيويين لاسيما دي سوسير، وأتباعه عدم الفصل بين البنى اللغوية، ووظائفها، وعدم إمكان عزل اللّغة عن نسيجها الاجتماعي، وإغفال الفرق بين اللّغة والكلام والتشديد على التفاعل بين النظام (أو البنية)، والسياس، وإعطاء الوظيفة أهمية أكبر من

⁴ دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، ص 91.

⁵ دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، ص ص 103، 104.

البنية نفسها، ورفض النسبية، والقول بالعموميات التي تنطبق على كل اللغات، وعدم الالتزام بالتفرق الحازم بين الدراسات التعاقبية والتزامنية كما رسمه دو سوسير"⁶.

ف "جوليا كريستيفا Julia Kristeva" على سبيل المثال تنطلق من التفريق الإجرائي بين هذه المناحي ثم تشرح العلاقة المنهجية التي تربطها، فالجانب التركيبي يتقاطع دوما مع الدلالي، وهذا التقاطع لا يفلت عن القصدية التي تمنحه موقعا خاصا؛ لأنّ تلك العناصر الدلالية تقتضي حضورا ثقافيا واجتماعيا ممّا يجعل النصّ ذو ارتباط مباشر بسياقه وبنصوص أخرى أو ما اسمته بالنصنصة، ومن بين تلك العناصر الدلالية كما تقول: الطبيعة والحياة والتطوّر والهدف، وهي تماثل معطى سابق على الإنتاجية النصّية، كما أنّ هذا التّماثل بدوره يستهدف الفعلية وهو عبارة عن أثر ونتيجة وعمل يظهر قبل وبعد الإنتاج النصّي، وبالتالي تصفه على أنّه يسعى إلى الكونية والتجرّد عن حدود الزمان والمكان لأنّه أدب وفن ويقدم نفسه على أنه خارج الزمن. تقول: "ينتمي المحتمل إذا إلى بنية ذات قواعد تمفصلية خاصة وإلى نسق بلاغي محدّد، فالتركيب المحتمل لنص ما هو ما يجعله متوافقا مع قواعد البنية الخطابية المعطاة (ذات القواعد البلاغية). هذا تحدّد وبشكل أوّلي، المحتمل التركيبي كمحتمل بلاغي، إذ المحتمل يوجد في بنية مغلقة ويستهدف خطابا ذا نظام بلاغي"⁷. وهي بذا ترسم خط التّوضيح من القواعد التركيبية للنصّ إلى عناصره الدلالية ثمّ النسق البلاغي حين يغدو النصّ فنا يؤثّر في الغير"⁸.

إنّنا نستذكر هنا مفهوم العلامة اللغوية الذي ركز عليه "دي سوسير" في توضيح ماهية اللغة، إذ عدّها نظاما من العلامات اللغوية وقيمتها تكمن في تحقيق الترابط التركيبي للجملة، وهي بلا شك جزء أساسي في نظام النصّ أيضا لأنّه وحدة لغوية تتحدّد من نظام العلامات والعناصر المشكّلة له، وهو بها يرقى لأن يكون "العلامة اللغوية الأساسية"⁹، في وصف يراد به استقلالية وشمولية وعمومية النصّ، وعلم النصّ وفق هذا المعطى يستهدف "ما هو أكثر عمومية وأكثر شمولية؛ فهو -يتعلّق من جهة- بكل أشكال النصّ الممكنة وبالسياقات المختلفة المرتبطة بها، ويعنى -من جهة أخرى- بمناهج نظرية ووصفية وتطبيقية"¹⁰

فالنصّ مرتبط باللغّة وهي موضوعه، هذا ما جعله مساحة لغوية دالّة وظيفتها تحقيق التّواصل، إبلاغا وإفهاما، والجملة في علاقتها معه تصبح جزءا من كلّ، أي أنّها تترايط وتتسلسل وفق قواعد التركيب النّحوي

⁶ محمد محمد يونس علي، مدخل لى اللسانيات، دار الكتب الجديد المتحدة، ليبيا، 2004، ص82.

⁷ جوليا كريستيفا، علم النصّ، تر: فريد الزاهي، دار طوبقال، المغرب، 2014، ط3، ص47.

⁸ ينظر: المرجع نفسه، ص ص 46، 47.

⁹ كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، تر: سعيد حسن بحيري، ص23.

¹⁰ فان دايك، علم النص مدخل متداخل التخصصات، ص14.

والانسجام الدلالي، فمن أبرز شروط النص وميزاته هذا الأسلوب من الترابط النحوي والدلالي، إذ علينا أن نفهم بوعي الممارسة النصية ومنهجيتها أن الطريقة التي يتم بها بناء النص تعني الأسلوب الذي ركب به، وبعودتنا إلى مفهوم النص لغة واصطلاحاً نجد أنه: التركيب اللغوي المتسق والمنسجم من خلال ضم العناصر اللغوية والروابط اللفظية بعضها إلى بعض قصد إيصال معنى معين.

انطلاقاً من هذا، وُضع مصطلح الاتساق (Cohesion) ليدلّ في اللغة على اجتماع الشيء وانضمامه وانتظامه، وفي الاصطلاح يدلّ على كلّ العناصر اللغوية التي تجعل من النص الملفوظ أو المكتوب منتجاً مكتملاً، متماسك الأجزاء التركيبية والنحوية والصرفية والدلالية، القائمة في شكل جمل تلعب دوراً محورياً في تكوين نص، باعتباره وحدة دلالية هادفة في إطار سياق داخلي وخارجي. كما وُضع مصطلح الانسجام (coherence) ليدلّ في اللغة على ضم الشيء إلى الشيء، وفي الاصطلاح يدلّ على مجموع الآليات الظاهرة والخفية التي تجعل قارئ نصٍ ما قادراً على فهمه وتأويله. وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ الاتساق كما أمعنا هو التماسك الحاصل بين تراكيب النص، وذلك بوساطة وسائل لغوية تصل بينها لتعبّر في النهاية عن دلالة (كالضمائر، الحروف (الجر، العطف،،)، التكرار، الحذف، التناص،،)، وإن كانت تلك العناصر تحقق الاتساق الظاهري للنص فإنّ الإحالة على الأسبقية الخارجية هي التي تحقق انسجامه الكلي من خلال اتساقه الدلالي، وهي إشارة لمفهوم الإحالة على العلاقات المعنوية واللغوية الحاصلة داخل عالم النص وخارجه، ولعلّ ذلك هو المانع لصفة التصانيفية.¹¹

خاتمة:

إنّ الطريقة التي يتم بها بناء النص تعني الأسلوب الذي ركب به، وبعودتنا إلى مفهوم النص لغة واصطلاحاً سنجد: التركيب اللغوي المتسق والمنسجم من خلال ضم العناصر والروابط اللفظية والمعنوية بعضها إلى بعض، قصد بلوغ معنى معين. وفي هذه الهندسة التركيبية للنص يبرز الإجراء التسجي من مفاهيم الاتساق والانسجام والإحالة والسيّاق بأنواعه والمقامية والقصدية، مما يجعله مادة لغوية تزخر لفظاً ومعنى وتبتعد فهما وقصداً.

¹¹ فايز الكرمي، تحليل البنية النصية من منظور علم لغة النص، ص 208.

مراجع المحاضرة:

القرآن الكريم

1. جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، دار طوبقال، المغرب، 2014، ط3.
2. دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان.
3. فان دايك، علم النص مدخل متداخل التخصصات.
4. فايز الكرمي، تحليل البنية النصية من منظور علم لغة النص دراسة في العلاقة بين المفهوم والدلالة في الدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث والدراسات، أيلول، ع25، 2011.
5. كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمنهج، تر: سعيد حسن بحيري.
6. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 2008، م30.
7. محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتب الجديد المتحدة، ليبيا، 2004.